ولهذا وقف بعضهم على قليلا ليواخي بها قوله وقليل ما هم وقليل من عبادي
الشكور ويبتدي من الليل ما يهجعون اي ما يهجعون من الليل والمعنى كانوا
من الناس قليلا ثم ابتدى فقال ما يهجعون وجعله جحدا اي لا ينامون
بالليل البتة بل يقومون للصلوة والعبادة وهو قول الضحاك ومقاتل وهذا
لم ينظر من حيث المعنى ولا ترتيب الصناعة اما الاول فلانهم لم يهجعوا ولا
يتصور مدحهم بترك هجوعهم واما الصناعة فلان ما في حيز النفي لا يتقدم عليه عند
البصريين هذا ان جعلتها نافية وان جعلتها مصدرية صار التقدير من الليل
هجوعهم ولا فايدة فيه لان غيرهم من ساير الناس بهذه المثابة الثاني ان
يجعل ما مصدرية في محل رفع بقليلا والتقدير كانوا قليلا هجوعهم الثالث
ان يجعل ما مصدرية بدلا من اسم كان بدل اشتمال اي كان هجوعهم قليلا
ومن الليل على هذين لا يتعلق بيهجعون لان ما في حيز المصدر لا يتقدم عليه
على المشهور وبعض النحاة لا يعتبرون ذلك في الظرفية فيجوز هذا عنده والمانع
يقدر فعلا يدل عليه يهجعون اي يهجعون من الليل الرابع ان ما زايدة
ويهجعون خبر كان والتقدير كانوا يهجعون من الليل هجوعا قليلا او زمنا
قليلا فقليلا نعت لمصدر او ظرف الخامس انها بمعنى الذي وعايدها
محذوف تقديره كانوا قليلا من الليل الوقت الذي يهجعونه وهذا فيه
تكلف فصل قال ابن الخطيب قليلا منصوب على الظرف
تقديره يهجعون قليلا يقال قام بعض الليل فنصب بعضا على الظرف
وخبر كانوا هو قوله يهجعون وما زايدة هذا هو المشهور وفيه وجه
آخر وهو ان يقال كانوا قليلا معناه كانوا من الناس قليلا فيكون قليلا
خبر كان ثم ما يهجعون معناه نفي النوم عنهم وهذا منقول عن الضحاك
ومقاتل وانكر الزمخشري كون ما نافية وقال لا يجوز ان تكون نافية لان
ما بعدها لا يعمل فيما قبلها لا تقول زيدا ما ضربت ويجوز ان يعمل ما
بعد لم فيما قبلها تقول زيدا لم اضرب وذلك لان الفعل المتعدي
انما يعمل في النفي حملا له على الاثبات فاذا ثبت هذا فالنفي بالنسبة الى
الاثبات كاسم الفاعل بالنسبة الى الفعل فانه يعمل عمل الفعل لكن اسم
الفاعل اذا كان بمعنى الماضي لا يعمل فلا تقول زيد ضارب عمرا امس
وتقول زيد ضارب عمروا غدا واليوم والان لان الماضي لم يبق موجودا
ولا متعلق الوجود فلا يتعلق بالمفعول حقيقة لكن الفعل لقوته يعمل
واسم الفاعل لضعفه لم يعمل اذا عرف هذا فقوله ما ضربت للنفي في الماضي
فاجتمع فيه النفي والمضي فضعف واما لم اضرب فان كان يقلب المستقبل
فوجد فيه ما وجد في قول القايل زيد ضارب عمروا غدا فاعمل قال ابن
الخطيب غير ان القايل بذلك القول يقول قليلا ليس منصوبا بقوله
ما يهجعون وانما ذلك خبر كانوا قليلين فصل تقديم قليلا
في الذكر ليس لمجرد السجع حتى يقع يهجعون ويستغفرون في اواخر الايات
بل لان الهجوع راحة لهم والمقصود بيان اجتهادهم وتحملهم السهر لله
تعالى فلا يناسبه تقديمه وقد يغفل السامع عما بعد الكلام فيعتقد
كونهم محسنين بسبب هجوعهم فقدم قوله قليلا ليسبق الى الفهم
اولا قلة الهجوع وقوله من الليل اشارة الى انه الزمن الذي يهجع الناس
فيه ولا يسهره في الطاعة الا متعبد مخلص فان قيل الهجوع لا يكون الا بالليل
والنوم نهارا لا يقال له هجوع فالجواب انه ذكر العام واراد الخاص
حسن تقول رايت حيوانا ناطقا فصيحا واما ذكر الخاص واراد به
العام فلا يحسن الا في بعض المواضع فلا تقول رايت ناطقا فصيحا حيوانا
واذا



واذا عرف هذا فقوله تعالى كانوا قليلا من الليل ذكر امرا هو العام يحتمل
ان يكون بعده كانوا من الليل يسبحون او يستغفرون او يسهرون او غير
ذلك فلما قال يهجعون تخصص ذلك الامر العام المحتمل له ولغيره
فزال الاحتمال قوله وبالاسحار متعلق بيستغفرون والبا
بمعنى في وتقدم متعلق الخبر على المبتدا لجواز تقديم العامل فصل
معنى قوله قليلا من الليل ما يهجعون اي يصلون اكثر الليل وروى سعيد
ابن جبير عن ابن عباس يعني كانوا قل ليلة تمر بهم الا صلوا فيها شيا
اما من اولها واما من اوسطها وقال انس بن مالك كانوا يصلون
ما بين المغرب والعشا وقال محمد بن علي كانوا لا ينامون حتى يصلوا
العتمة وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير كل ليلة اتت عليهم هجعوا
كلها وقال مجاهد كانوا لا ينامون كل الليل وبالاسحار هم يستغفرون
قال الحسن لا ينامون من الليل الا قليلا وربما نشطوا فمدوا الى السحر
ثم اخذوا بالاسحار في الاستغفار وقال الكلبي ومجاهد ومقاتل وبالاسحار سحار
يصلون وذلك ان صلاتهم بالاسحار لطلب المغفرة روى ابو هريرة
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل الله الى السما كل ليلة حين
يبقى ثلث الليل فيقول انا الملك انا الملك من الذي يدعوني فاستجيب له
من الذي يسالني فاعطيه من الذي يستغفرني فاغفر له فصل
قوله وبالاسحار هم يستغفرون اشارة الى انهم كانوا يتهجدون
ويجتهدون ثم يريدون ان يكون عملهم اكثر من ذلك واخلص منه فهم
يستغفرون من التقصير وهذه سيرة الكريم ياتي بابلغ وجوه الكرم
ويستقله ويعتذر من التقصير واللئيم ياتي بالقليل ويستكثره ويمن
به وفي الاية لطايف الاولى انه تعالى لما ذكر قلة هجوعهم والهجوع مقتضى
الطبع قال يستغفرون اي من ذلك القدر من النوم القليل الثانية
انه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ولم يمدحهم بكثرة السهر فلم يقل كانوا
كثيرا من الليل ما يسهرون مع ان السهر هو الكلفة والاجتهاد لا الهجوع
وهذا اشارة الى ان نومهم عبادة حيث مدحهم الله بكونهم هاجعين
قليلا وذلك الهجوع اورثهم الاشتغال بعبادة اخرى وهو الاستغفار
بالاسحار ومنعهم من الاعجاب بانفسهم فصل البا في قوله بالاسحار
استعملت للظرف هنا وهي ليست للظرف قال بعض النحاة ان حروف
الجر ينوب بعضها عن بعض يقال في ظرف الزمان خرجت لعشر بقين
وبالليل وفي شهر رمضان فتستعمل اللام والبا وفي وكذلك في ظرف المكان
تقول اقمت بمدينة كذا وفيها ورايته ببلدة كذا وفيها قال ابن الخطيب
والتحقيق فيه ان نقول الحروف لها معان مختلفة كما ان الاسما والافعال
كذلك غير ان الحروف غير مستقلة بافادة المعنى والاسم والفعل مستقلان
لكن بين بعض الحروف وبعضها تنافر وتباعد كما في الاسما والافعال
فان البيت والمسكن متخالفان متقاربان وكذلك المكث والسكون
وكذلك كل اسمين او كل فعلين يوجد فان بينهما تقارب وتباعد لان
البا للالصاق وفي للظرف واللام للاختصاص والظرف مع المظروف
ملتصق ومختص به اذا عرف هذا فنقول بين البا وفي مشاركة اما البا
فلانها للالصاق والتمكن في مكان ملتصق به متصل وكذلك الفعل بالنسبة
الى الزمان فاذا قال سار بالنهار معناه ذهب ذهابا متصلا بالنهار
فقوله وبالاسحار هم يستغفرون اي متصلا بالاسحار اخبر عن الاقتران
يدل لما يدل على وجود الفعل مع اول جزء من اجزا الوقت من قوله في الليل لانه